الفصل

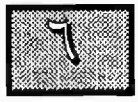

تدابير التجديد

لاحظت فيكتوريا وودهل فى كتابها "التزايد السريع لمن لايصلحون" الصادر عام ١٨٩١ أن "أفضل أذكياء عصرنا يقبلون حقيقة أننا إذا كُنَّا ننشد إنسانا أفضل، فلابد أن نستولده، وإذا كنا نرى أن البلهاء والمجرمين ونوى الاملاق وغيرهم ممن لايصلحون، ليسوا بالمواطنين المرغوبين فمن الواجب ألاَّ نستولدهم". وبعد تحول القرن تزايد الحديث بين اليوجينيين الأنجلو أمريكيين عن طريقة تنفيذ ذلك. كان فى المقترحات من التباين بقدر ماكان فى قناعة أعضاء الحركة. على أنا نستطيع أن نقسم أسلوب العمل إلى نهجين يتداخلان أحيانا: "اليوجينيا الإيجابية" التى تهدف إلى تشجيع التكاثر بين أهل التقدير الاجتماعى، و "اليوجينيا السلبية" التى تهدف إلى تشجيع الأقل تميزا علي أن يقللوا من نسلهم أو- وهو الأفضل- ألاَّ ينجبوا على الاطلاق.

كان فرانسيس جالتون قبل كل شىء يوجينيًا إيجابيا، وكان بين من ورثوه مثاليون، وكان الكثير منهم محافظين مثله، أما عن مراكزهم: فلقد كان منهم ألسكندر جراهام بيل الذى زكَّى زواج الصم بأفراد من عائلات لاتحمل الصمم، متوقعا أن نتخلص بذلك من هذه النقيصة، وكان منهم أسقف ريبون الذى حث على تناسل الأصلح من أجل المصلحة الإمبريالية حتى يمكن تعمير المستعمرات بأفراد ممتازين من "الجنس" البريطانى، وكان منهم أيضا تيودور روزفلت الذى نبه تشارلس دافينبورت إلى أنَّا "سنعرف يوما أن المهمة الرئيسية لكل مواطن صالح، المهمة التى لافكاك منها، هى أن يخلف دمه في العالم بعده". ورغم ذلك فإن أقوى مؤيدى اليوجينيا الإيجابية في الولايات المتحدة وبريطانيا عند بداية هذا القرن كانوا من المتطرفين الاجتماعيين، والكثيرون منهم كانوا يميلون إلى الرؤى اليوتوبية.

أعلن هافلوك إليس عام ١٩١١ "إننا نولّد السلالة، إننا وحدنا من يستطيع أن يجدد السلالة". طمح أليس أن يستغل المعرفة الوراثية الجديدة فى زيادة عدد الأكثر صلاحية. ومثله كان جورج برنارد شو، وإن كانت حركة اليوجينيا لم تَسْلم من سخريته (قال مرة إنه لايلزم بالضرورة أن يعاقَب القتلة الذين يصيبون الصحافة البريطانية بالذعر، لأنهم قد يخلّصون المجتمع من غير المرغوبين يوجينيا، أما من يميلون بطبيعتهم إلى القتل فلقد يكون من الواجب أن نعلّمَهم ألاّ يقتلوا سوى مَنْ يمكن للمجتمع أن يمضى بدونهم). لكن بالرغم من أن شو كان يتخذ دور المهرج الشنيع، فلقد أخذ اليوجينيا على محمل الجد، حتى ليشترك في مجلة كارل بيرسون "بيومتريكا"، وليظل دائما على اتصال ببيرسون، وليجعل من نفسه شخصية بارزة في حركة اليوجينيا البريطانية.

غلف شو كتابه "الإنسان والسوبرمان" بالمبادىء اليوجينية. كتب بطريقة خطابية فى مقدمة الكتاب يقول "لأننا جبناء، فإننا نبطل الانتخاب الطبيعى بدعوى حب الانسانية، ولأننا كسالى، فإننا نهمل الانتخاب الاصطناعى تحت شعار الرقة والفضيلة". إن الاصلاحات البيئية فى ذاتها لاتبشر - عند شو - باقتراب العصر الذهبى لليوجينيا. سخر من اليوجينيا السلبية التى بدا أن المجتمع مستعد لتطبيقها "بمتعة فائقة، علي المشنقة وفي ساحة القتال"، وأصر على ضرورة أن نولى اهتماما أكبر للتحسين البيولوجي لهذا الكائن البائس المسمى الانسان. قال من أجل الحضارة لم يسبق أن أوجدنا إنسانا، وكل مافعلناه هو أن أبدنا الملايين. إننا نقتل الانسان في التِّبت مهما كان الثمن، بالرغم من ديننا، لكى نفتح للإنجليزى الطريق إلى العاصمة لازا، لكنا لم نتخذ خطوة علمية حقيقية تضمن أن يتمكن هذا الانجليزى عندما يصل إلى هناك أن يعيش وفق التفوق الذى نفترضه". قَطُرت يوجينيا شو الايجابية هدفَ جالتون الخالد - التخلص من الخطيئة الأصلية بالتخلص من المذنب الأصلى - قطرته إلى جوهر اجتماعى ملزم، ذلك أنه بلا سوبرمان، بلا توسع في قدرة الانسان المعنوية والأخلاقية، لن يكون التقدم الاجتماعى إلا وهما.

اعتبر الراديكاليون الاجتماعيون الاصلاحات البيئية مهمة من الناحية اليوجينية. ولعل هارولد لاسكى، الاشتراكى الشاب، هو خير من يمثل وجهة نظرهم. أنفق لاسكى ستة أشهر فى معمل بيرسون قبل أن يلتحق بجامعة أكسفورد، ونشر وهو هناك مقالة عن اليوجينيا لفتت نظر جالتون نفسه، فدعاه على فنجان شاى ("إنه ببساطة شاب جميل من النموذج اليهودى" هكذا أخبر بيرسون، مضيفا في يومياته أن لاسكى سيكون ذا شأن إذا واصل العمل فى

اليوجينيا). أنشأ لاسكى "نادى جالتون" فى اكسفورد من أجل المناقشات اليوجينية، ورأى أن الوقت سيحين بالتأكيد عندما يرى المجتمع أن "إنجاب الضعفاء هو جريمة فى حق نفسه". لكنه انشق علي بيرسون في قضية التشريعات الاجتماعية مثل قانونى المصنع والتعليم، فقد رأى بيرسون أن إبعاد الأطفال عن القوة العاملة ربما تسبب فى تثبيط همة العائلات العاملة القوية فى إنجاب نسل أكثر. اعتبر لاسكى أن أهداف القانونين "تستحق التقدير" وأنه من الممكن معالجة آثارهما السيئة بالنسبة للصفات الوراثية برفع الحد الأدنى للأجور بما يسمح لآباء الأطفال المرغوبين بأن يعولوا أبناءهم.

كانت أهم الاصلاحات البيئية، من وجهة نظر الراديكاليين الاجتماعيين من اليوجينيين، هى تخفيف الفروق بين الطبقات، أو الغائها تماما ـ وهذا أفضل. كان ظنهم، كما وضعه أليس، هو أن "أفضل أرومة" ليست هى بالضرورة أرومة الطبقة الاجتماعية العليا"، وإنما هي موجودة في كل الطبقات الاجتماعية، بل وربما كانت الأرومة فى الطبقات الدنيا "هى الأكثر مقاومة للظروف غير الملائمة". يستمر الجدل يقول إن الفقر ينتج عن التزاوج العشوائى بين رجال ونساء حرموا من اختيار الشريك أو الشريكة الأفضل وراثيا. فإذا ماتحطمت الفروق بين الطبقات فمن الممكن للتطور الانسانى والاجتماعى أن يتقدم، ليس كيفما اتفق، وإنما عن فعل واع للإرادة الجماعية. في مقدمة كتاب "الانسان والسوبرمان" كتب شو "إذا جزأنا البشرية زمرا صغيرة، ثم حددنا اختيارات الفرد داخل زمرته، فإنا بذلك نؤجل ظهور السوبرمان دهرا، وإن لم يكن إلى الأبد. لايكفى أن يربى الفرد ويدرب كوالد محتمل، بل يلزم أيضا ألا تكون ثمة عقبة أمام الانتخاب الطبيعى، كمثل الاعتراض على زواج كونتيسة من عامل أو دوق من خادمة".

فى عام ١٩١٠ أثار شو البهجة في جمهور مستمعيه عندما اقترح أن مصلحة اليوجينيا تتطلب السماح للنساء أن يصبحن أمهات محترمات دون الحاجة إلى الاقامة مع آباء أبنائهن. الواضح أن شو كان يتفق مع ادعاء أليس بأن "قضية اليوجينيا هى إلى حد كبير نفس قضية المرأة". كان التحرريون بالنسبة لهذه القضية يعتبرون أن تحكم المرأة في حياتها هو احدى الضرورات اليوجينية ـ ليس فقط من الناحية الجسدية. فبدون الوظيفة المستقلة ستُجبر المرأة على الزواج من زوج كثيرا مايكون مريضا أو فاسقا. ستمكنهن الوظيفة من تجنب الزواج غير الملائم يوجينيًا، ولانقصد عدم الزواج على الإطلاق أو عدم الانجاب. اعترف هافلوك إليس،

برغم أنه كان عقيما أبشر، أو ربما لأنه كان كذلك، بأن تحقق اليوجينيا... لايمكن أن يتم إلا بتحقق الحركة النسائية في أحدث وأكمل أطوارها كثقافة أمومة مستنيرة".

لكن الكثيرين من اليوجينيين الراديكاليين الاجتماعيين تشككوا فى أن يحجم المعوقون وراثيا عن الزواج من أجل مصلحة السلالة. إن هذا - كما يقول إليس - وَهْمٌ يوتوبى من أوهام فرانسيس جالتون، ثم أضاف أن النتيجة هى "أن يُساء باستمرار تفهم اليوجينيا، وأن تجد من يسخر منها، وأن تعتبر بدعةً". أما الآن وبعد أن تحققت أوتكاد السيطرة الميكانيكية على التكاثر، فإن اليوجينيا لم تعد فى حاجة إلى أن تكون غير عملية، أو سخيفة، أو معارضة لرغبات الانسان الطبيعية. وهذا يجعل من العلاقة الجنسية مجرد مسألة متعة شخصية، ومن ثم يستثمر فعل التناسل لمصلحة السلالة. أضاف إليس أن تنظيم النسل سيخفف الأعباء المالية على العائلات منخفضة الدخل، ويحمى صحة الأم، ويسمح برعاية أفضل لمن يولد من أطفال.

وهذه المناقشات - المألوفة الآن - كانت خلافية أيام إليس. لقد حَظَر أولو الاحتشام المتطرف فى أمريكا - طويلا - حتى مناقشة وسائل تنظيم النسل، دعك من توزيعها. وحتى المتعاطفون مع قضية منع الحمل، سنجدهم في بعض الأحايين يعملون على كبت الموضوع بمعارضتهم مناقشته علنا. عورضت قضية تنظيم النسل بشدة على جانبى الأطلنطى قبل الحرب العالمية الأولى، عارضها العديد من اليوجينيين الذين شايعوا الاتجاه السائد للحركة، وهم من قد نسميهم "يوجينيى الخط الأم". وكان الكثير من هؤلاء من نوى النزعة المحافظة، وكانت رؤيتهم لقضايا مثل "قضية المرأة" تختلف بوضوح عن رؤية إليس وشو.

كان يوجينيو الخط الأم يعتقدون أن طرق منع الحمل ستجيز فصل العاطفة عن مسئوليات الانجاب، ومن ثم ستؤدى إلى الفسق. ولقد اتهم هنرى فيرفيلد أوسبورن (فى عام ١٩٣٢) تنظيم النسل بأنه يؤدى إلى "اتجاهات" غير طبيعية تماما، وأشار إلى أن الدولة التى تستخدم تنظيم النسل فى "صورته الأكثر تطرفا" هى الاتحاد السوفييتى "حيث يرتبط بقدر كبير من العلاقات الجنسية غير الشرعية". أبقى ليونارد داروين موضوع تنظيم النسل بعيدا عن التداول فى جمعية التربية اليوجينية، وعن صفحات مجلته "يوجينيكس ريفيو". لم يكن هذا ببساطة لأن الكثيرين من أعضاء الجمعية يجبون الموضوع بغيضا، ولكن لأنهم كانوا يعتبرون تنظيم النسل - كما قال داروين - مدمرا "للسلالة. وبالرغم من أن وسائل منع الحمل من ناحية المبدأ قد

تساعد في إيقاف تكاثر الجماعات الأقل دخلا والأقل تعليما، فإنها كانت مرفوضة عمليا في هذه القطاعات من المجتمع، والواقع أن الطبقة العليا هي التي كانت تستخدمها بنسبة أعلى غير متكافئة - نقصد الطبقة التي أزعجت اليوجينيين بسبب تدهور خصبها.

أما داخل الخط الأم لليوجينيا في انجلترا وأمريكا فقد كان مكان المرأة المتعارف عليه هو البيت، قرب المدفأة وسرير الطفل - إن واجبهن، كما ترنّم الكاهن إنج وأعلن تيودور روزفلت بصوت عال، هو أن يتزوجن وينجبن الأطفال (كان العدد الضروري المفترض من الأبناء لحفظ السلالة هو أربعة لكل زواج). أعلن إدوين جرانت كونكلين، أستاذ علم الأجنة بجامعة برينستون وأحد كبار البيولوجيين في ذلك العهد، أعلن عام ١٩٢٥ أن الحركة النسائية هي "عون للسلالة" للحد الذي تَمْنح فيه النساءَ حريةً ثقافية وسياسية أكبر، أما بالنسبة لما تطلبه من "التحرر من الزواج والانجاب ، فهي انتحارية". في كتاب "العائلة والأمة" للزوجين هويذام - وهما ذاتهما الجناح المعارض للحركة النسائية داخل جمعية التربية اليوجينية - صرخا يقولان "ويل لأمة ترفض أفضلُ نسائها أن يحملن عبأهن الطبيعي المجيد!".

تنبه يوجينيو الخط الأم إلى خطر التعليم العالي للمرأة. تقول حججهم إن التعليم يحول الطاقة البيولوجية عند المرأة من مهمة الإنجاب إلى أثقال الأنشطة الذهنية والدنيوية. بينت الدراسات في أوائل القرن أن خريجات الجامعة يملن إلى عدم الزواج، وأن من تحمل منهن تنجب في المتوسط عددا من الأطفال يقل عن اثنين، وهذا أقل من نصف العدد المطلوب لبقاء أرومتهن الاجتماعية (أوضح رئيس كلية نيونهام، كيمبريدج، عام ١٨٩٠، إحصائيا، أن خريجات الجامعة يتمتعن بنفس صحة قريباتهن الأقل تعليما، وبنفس احتمالات الزواج، وبنفس الخصب، أما نسبة العوانس والبُتْرفيهن فهي من ملامح الطبقة الاجتماعية، لامن ملامح تعليمهن العالي). تخوف محلل أمريكي من أن ارتفاع نسبة النساء بين الأساتذة في كليات البنات سيشجع الطالبات على حب هذه المهنة. ورفض أوسبورن أن يصادق علي التعديل القاضي بمنح النساء التصويت، على أساس أن هذا يتعارض مع تطور الجنس البشري.

ورغم ذلك فقد انضم يوجينيو الخط الأم إلى الراديكاليين الاجتماعيين ليجعلوا من التربية والتعليم، على الأقل بالنسبة لليوجينيا، نقطةً رئيسية في برامجهم، وذلك بعد أن فشلوا في إيقاف مد إقرار حق التصويت للنساء، والتعليم العالي لهن، وثورتهن الجنسية. سعدت الجمعية

الأمريكية لليوجينيا وهى تعلن فى عشرينات هذا القرن أن ثمة مقررات في اليوجينيا قد أصبحت تدرس آنذاك فى نحو ٣٥٠ كلية وجامعة. كان الشباب من الجنسين يوجّهون لمعرفة مسئولياتهم التناسلية نحو السلالة (فى محاضرة لكارل بيرسون فى عشرينات هذا القرن ذكر أن الزواج الذى يتم لمجرد الرغبة فى السعادة هو زواج "أنانى معاد لمصلحة المجتمع"). والأكثر من ذلك أن يوجينيى الخط الأم، حتى هؤلاء، قد عضدوا، من أجل خير السلالة، تدريس قوانين الوراثة للنشء، بل وحتى تدريس حقائق الصحة الجنسية والأمراض التناسلية والحمل ورعاية الطفل - حتى يعرفوا العواقب المضمنة في ممارسة الحب التي ستظهر فى النسل، وحتى يصبح "القديس ڤالنتين قديسا للعلم لا للفولكلور" كما قال هافلوك إليس.

كان الغرض من المجهود التعليمي هو تشجيع اليوجينيا الايجابية، ولكنه كان يهدف أيضا وبنفس القوة إلى تشجيع الإدراك باليوجينيا السلبية: من الضرورى تجنب العلاقات الجنسية بين الأصحاء و "الموصومين" أو المرضى. اقترح البيولوجى البريطانى ج. آرثر طومسون أن الثقافة اليوجينية قد توقظ "تحيزا صحيا ضد الزواج بين من لديهم نزعة وراثية واضحة نحو أمراض معنية (كالصرع والسكر)، لاسيما إذا كان الزوجان من بين أفراد عائلة واحدة"، ثم تساءل "أمِنَ اليوتوبية أن نأمل أن يتقدم الوعى الأخلاقى للرجل العادى رويدا رويدا فيحمل بين مايحمل شعورا بالمسئولية نحو صحة الأجيال القادمة؟". تتوقف هذه الصحة عند اليوجينيين، ولحد كبير، على تقليل الفوارق الاجتماعية في معدل المواليد، وهذه مسألة تلقى دائما بأضوائها على فوائد منع الحمل. لقد أقر حتى يوجينيو الخط الأم بأن ثمة ماهو صحيح فى تأكيد ماتقول به مجلة "أمُنّا الأرض" الشهرية (لإيما جولدمان) من أن مَن ينكرون نشر وسائل تنظيم النسل إنما "يشجعون بالقانون تزايد الملقين ومرضى الزُهرى ومرضى الصرع والسكيرين والمقعدين والمجرمين والمنحلين".

وعلى عشرينات قرننا هذا كان الغزو الفرويدى لعادات الطبقة الوسطى يسير بخطى سريعة. قيل إن للمرأة أن تتوقع الارتواء الجنسي فى الزواج دون خوف من الحمل. لقد جاء تنظيم النسل ليبقى، ومثله أيضا - على مايبدو - الانخفاض المطرد فى معدل المواليد بالطبقات العليا. وكما قالت مارجريت سانجر، فإن الاستجابة اليوجينية المعقولة لاختلاف معدل الولادة بين الطبقات، هى أن توفُر المعرفة عن منع الحمل، وفرص استخدامه، لذوى الدخول المنخفضة والتعليم الأقل، مثلما توفُر لغيرهم. ربطت سانجر، قبل الحرب، مابين تنظيم النسل والحركة

النسائية، أما الآن فقد ربطت - مثل قرينتها البريطانية مارى ستوبس - بين منع الحمل والقضية اليوجينية. كتبت عام ١٩١٩ تقول "أطفال أكثر من نوى الصلاحية الأعلى، وأطفال أقل من نوى الصلاحية الأدنى - هذه هى المهمة الأولى لتنظيم النسل". بل إن ليونارد داروين نفسه قد اقتنع فى النهاية بالانضمام إلى حركة تنظيم النسل. أصبح منع الحمل، بعد أن حُرِّرَ من النسائية الصارمة، مقبولا لدى اليوجينيين المحافظين، فثمة تناغم طبيعى بين ميولهم الاجتماعية وبين الأساس المنطقى لتنظيم النسل الذى قدمه هافلوك إليس: "يُلقى الرجل العطوف قرشا إلى المتسول، أما الرجل الأكثر عطفاً فيبنى له ملجأً حتى لايحتاج إلى التسول، لكن، ربما كان أكثرنا عطفا هو من يدبر الأمر بحيث لايولد المتسول".

* * *

توقع الكثير من اليوجينيين أن برنامج تحسين السلالة - الايجابى أو السلبى - لابد أن يعتمد علي الارادة الحرة للناس - ومن ثَمَّ كان التأكيد على التعليم، والنصح، وضرورة منع الحمل. إن التحكم في الأمور الشديدة الخصوصية من حياة الانسان - كالزواج والجنس والحمل - لابد أن يُترك للحرية الشخصية. كان الكثير من اليوجينيين - الراديكاليين منهم ومعتنقى الخط الأم - هم من المصلحين الأخلاقيين الذين يؤمنون مع هافلوك إليس بأن "الاكراه الوحيد الذى يمكن تطبيقه في اليوجينيا هو الاكراه الذى يأتى من الداخل". أما الاعتقاد بأهمية الارادة الحرة للفرد فينبع من أن ماكان يعرف عن قوانين الوراثة فى الانسان - فى رأى الثقات الوراثيين - هو قدر ضئيل. ثم ان إثارة الدولة ضد توالد المتخلفين قد "يجدد باسم العلم طغيانا تطلَّب الأمر دهورا من التطور الاجتماعى للخروج منه"، كما قال سوسيولوجى انجليزى قبل أن يتمكن النازى من السلطة. بعد فترة وجيزة من تأسيس جمعية الثقافة اليوجينية عام ١٩٠٧، أعلنت أن سياستها ليست هى تأييد تدخل الدولة فى اليوجينيا. ورغم ذلك، فثمة عدد من اليوجينيين البريطان والأمريكان اقتنعوا بوجهة النظر التى قدمها جالتون قرب نهاية حياته: ربما وجدنا ببعض المشاكل الحرجة - لاسيما توالد المتخلفين - من وضوح المعالم ومن الفظاعة مايبيح تدخل الدولة بشكل قسرى فى تكاثر البشر.

بعد أن تلقت اليوجينيا الطاقة من الداروينية الاجتماعية، قد يبدو من المحير أن يلجأ اليوجينيون، والمحافظون منهم بالذات، إلى الحكومة، فوجهة النظر النمطية لعقيدتهم تقول إن

التنافس يقود أوتوماتيكيا إلى بقاء الأصلح، وتدخُّلُ الحكومة سيفسد عمليةً يفضَّل أن تُترك للفعل المستقل للقانون الداروني ـ الانتخاب الطبيعي للأصلح. لكن الصلاحية في نظرية داروين تعني القدرة على الحياة والتكاثر في بيئه معينة، والأفراد ذوو الصلاحية تحت هذا المعنى يشملون بالتحديد أنماط الطبقة الدنيا المسئولة، كما يقول كارل بيرسون، عن الجانب الأعلى من معدل المواليد التفاضلي. لاحظ إدجار شصطر ـ أول زميل يوجيني بكلية الجامعة بلندن، أن الصلاحية تعني شيئا مختلفا عند ا ليوجينيين: "حالة طيبة أو نوعية ممتازة، جسديا وذهنيا ... نوعاً من الخيال البيولوجي لما يجب أن يكون عليه الانسان". فإذا ماكان الانتخاب الطبيعي يثمر الفردَ الصالحَ داروينيا، فليس غير الانتخاب الاصطناعي مَنْ يقوم بتكاثر الفرد الصالح يوجينيا ـ بالوسائل الحكومية حيثما كان ذلك مناسبا.

حرك هذا التفكير المحافظين على وجه الخصوص (فلم يكن المصلحون والراديكاليون آنئذ في حاجة إلى دافع خاص) ليحيدوا عن مبدأ "اتركه يعمل"، ببرنامج من تدابير اليوجينيا الايجابية. كان هذا البرنامج يتضمن تدخلا حكوميا لانتاج السلالة الأفضل من خلال حوافز مالية مختلفة. "اذا كانت المرأة تستطيع، باختيارها الدقيق للأب، وبعنايتها بتغذيتها، أن تنجب مواطنا ذا حواس فعالة وأعضاء سليمة وهضم ممتاز، فلابد أن تُمنح جائزة، مكافأة لها على هذه الخدمة العامة، حتى تظل راغبة في أداء المهمة وتكرارها"، هكذا كتب شو في مقدمة "الانسان والسوبرمان"، كانت الحوافز المقترحة تشمل تخفيض الضرائب للمساعدة في تغطية تكاليف الأمومة ورعاية الطفل، لاسيما في العائلات التي تستحق التقدير (بدت هذه الفكرة غير ملائمة بالنسبة لوزير المالية، ونستون تشرشل. صحيح أنه كان يعتبر أن تشجيع الخصب في طبقات المهنيين أمر يستحق التقدير، لكنه أعلن أن هذا الهدف لايدخل ضمن بنود الميزانية العامة، التي لاتهتم إلا بتمويل الحكومة). تضمنت التوصيات أيضا علاوة للدراسة ومنحا للتعويض عن المرتب، تقدم للنساء من الطبقات العاملة بالصناعة اللائي يضطررن لترك العمل أثناء الحمل والولادة ورعاية الطفل.

طلب اليوجينيون البريطان من الجيش، وقد أفزعهم مقتل الكثيرين من «أفضل» الشباب في ساحة القتال أثناء الحرب العالمية الأولى، طلبوا أن تصدر شارات للكُم تسمى «الشارات اليوجينية» تمنح لمن هم أهل للتقدير من الجرحى، فلقد توازن الجروحَ التي تجعل هؤلاء أقل جاذبية بالنسبة للنساء، ترسل اليوجينيون أيضا إلى الحكومة أن تمنح كل من يتزوج من

هؤلاء المحاربين القدامى منزلا خاصا. ولقد دفع منطق اليوجينيا الايجابية حتى المحافظين لأن يوصوا بدفع مرتبات رجال الطبقة العاملة المحترمين حتي يتمكنوا من ابقاء زوجاتهم بالمنزل يحملن ويرعين الأطفال، بدلا من الالتحاق بالعمل. بل لقد رأى الزوجان هويذام أنه من المفضل أن تقف الدولة أموالا علي الأبوة، فتمنح الأوسمة والجوائز لكل من ينجب نسلا قويا سليما قادرا، أيا كان موقعه في المجتمع.

كانت الرغبة في هجر مبدأ "اتركه يعمل" قوية أيضا عند معتنقى اليوجينيا السلبية. قاد المبدأ الاشتراكى الكاتب هـ. ج. ويلز إلى القول إن "الأطفال الذين يأتى بهم آباؤهم إلى هذا العالم لايجب أن يستمروا هكذا شأنا خاصا من شئون الآباء، إلا بمقدار خصوصية ماينشرون من جراثيم الأمراض أو يذيعون من ضجيج في منازلهم". شعر رجال الاجتماع والطب النفسى ومراقبو الاصلاح - وهم المقتنعون بالأساس الوراثى للتخلف الاجتماعى - شعروا بأنهم مجبرون على تزكية تدخل الحكومة كحل أوحد لتقليل حجم عملهم. أطلق هافلوك إليس اسم "المجتمع السيزيفى" على المجتمع الذى يحاول الاصلاح الاجتماعى بينما يسمح "بالدخول إلى الحياة... للضعيف وغير الكفء والمعتل، بحرية أكثر مما يسمح بها للقوى الكفء السليم العقل".

ظهر هذا المنطق كأوضح مايكون فى الاستجابة التى قوبلت بها "آفة ضعاف العقول". وجد اليوجينيون من كل ضرب أرضيةً مشتركة فى الفكرة القويمة القائلة بالتخلص من العيوب الاجتماعية عن طريق منع تناسل غير المرغوبين يوجينيا: أما الاقتراحات التى قُدمت لانجاز هذه المهمة فقد تراوحت مابين الوحشية (قتل المتخلفين بلا ألم، أو السماح للأمهات بخنق من يحمل من أطفالهن تشوهات وراثية) وبين السخرية (التخلص من إدمان الكحوليات بأن نترك المدمنين يشربون حتى الموت، أو معاقبة القاتل بشنق جده!). على أن اليوجينيين عموما قد رفضوا الاجهاض وسيلة لمنع ولادة من لايصلحون، فلقد اعتبرته الجمعية اليوجينية الأمريكية جريمة قتل، إلا إذا تمت على أساس طبى صارم. تمسك المجتمع اليوجينى بديلا عن ذلك، بشدة واصرار، بتقييد الزواج، والعزل الجنسى، والتعقيم، ثم تقييد الهجرة - فى أمريكا.

أولى اليوجينيون اهتماما خاصا لزواج ضعاف العقول والمجانين والمرضى، لاسيما المرضى بالأمراض التناسلية. اقترح البعض التوسع في أسباب الطلاق لتشمل الصرع والقصور

الذهنى والإجرام وإدمان المسكرات. ومضى آخرون لأبعد من هذا فزكوا أن يجبَر العريس فى المستقبل على الحصول على شهادة طبية بخلوه من الأمراض التناسلية والعقلية. غير أن هنرى جودارد، مثلا، قد أبرز أن قوانين تقييد الزواج ليست الدواء لكل داء، وبالذات بالنسبة لضعاف العقول، فلأن الكثيرين منهم يفتقرون إلى الاحساس المتأصل بالفضيلة، فإن تعويق زواجهم لن يشكل عقبة أمام تكاثرهم. تصور الكثيرون من اليوجينيين على جانبى الأطلنطى أن مشكلة المعوقين عقليا تتطلب أن يصبح العزل الجنسى أمرا منظما تنظيما رسميا. قال الزوجان هويذام "بالاصلاح التشريعي يمكننا أن نعزل عن المجتمع أسوأ النماذج من ضعاف العقول، والمجرمين بالفطرة، والملقين الميئوس منهم، ومن ثم نخلص سلالاتنا تماما من العناصر الملوثة ذات الدم الحقير".

كان العزل عن المجتمع والتوجيه هما الوجه الآخر للتربية والرعاية، والنهجان يكملان بعضهما بسولة فى التفكير اليوجينى. أوضحت الجمعية اليوجينية الأمريكية الفوائد المؤكدة التى نتوقعها من العزل عن المجتمع في كتيبها "سؤال وجواب".

س: كم يتكلف العزل عن المجتمع؟

ج: قُدِّرَ أننا لو كنا قد عزلنا جَدَّىْ "الجيوكس" طيلة العمر لتكلفت ولاية نيويرك ٢٥٠٠٠ دولار.

س: هل هذا توفير حقيقى؟

ج: نعم. لقد قُدِّرَ أن ماأنفقته ولاية نيويورك حتى عام ١٩١٦ على سلالة هذين الجدين يبلغ ٢٠٠٠٠٠٠ دولار.

س: ماهى تكاليف تعقيم الجدين الأصليين لعائلة جيوكس؟

ج: أقل من ١٥٠ دولارا.

منذ ثمانينات القرن الماضى بدأ عدد محدود من موظفى المراكز الأمريكية للمعوقين ذهنيا، يؤيدون سياسة التعقيم. وفى عام ١٨٨٩، فى مدرسة بنسلفانيا لتدريب الأطفال البلهاء فى إلوين، قام المدير الدكتور اسحق نيوتن كيرلين بعد موافقة الآباء، بفحص بضعة أطفال. لم تكن

ثمة ولاية قد أجازت التعقيم قانونا، لكن مثل هذه التجارب على "من لايصلحون" ظلت مستمرة، لاسيما علي يدى الدكتور هارى سى. شارْب، الطبيب بإصلاحية ولاية إنديانا فى جيفرسونفيل، فلقد راد هذا الطبيب عملية قطع الوعاء الناقل للمجرمين عام ١٨٩٩. وعلى عام ١٩٠٧ كان شارب قد أجرى هذه العملية على ٤٦٥ شخصا، قيل إن أكثر من ثلثهم قد طلبها بنفسه. يقول شارب "قطع الوعاء الناقل هو ربط جزء صغير من هذا الوعاء ثم استئصاله بالجراحة، والعملية فى الواقع بسيطة للغاية وسهلة التنفيذ، وأنا أقوم بها دون تخدير جزئى أو كلى، وهى تستغرق نحو ثلاث دقائق، يعود بعدها المريض إلى عمله دون أدنى إزعاج، ثم انها لاتفسد على الاطلاق طريقته فى الحياة أو حريته أو سعادته، برغم أنها تعقمه فعلا". كان الرجال يعامَلون بقطع الوعاء الناقل، أما النساء فكن يعقمن بقطع قناة فالوب أو ربطها، وهى عملية مؤلمة خطيرة.

كان اليوجينيون المعضدون للتعقيم موجودين في كل مكان عبر النطاق السياسى، وكلهم يضعون مصلحة المجتمع قبل حقوق الأفراد. ألقى الدكتور وليام ج. روبنسون (طبيب الأمراض البولية، المتعصب الجنسى) خطبة قال فيها "إنها لذروة الغباء أن نتحدث فى مواضيع الحرية الشخصية هذه عن حقوق الفرد. فمثل هؤلاء لاحقوق لهم، فليس لهم بادىء ذى بَدْء الحق فى أن يولدوا، ولكن طالما أنهم ولدوا، فليس لهم الحق فى إكثار نوعهم". نما بين اليوجينيين بالولايات التحدة إجماع قوى على تحبيذ التعقيم - تراوح معضدوه مابين مارجريت سانجر وتيودور روزفلت. ولم يكن ثمة إجماع فى بريطانيا، إذ لم يقتنع بضرورة هذا المنهج إلا عدد قليل نسبيا من اليوجينيين البريطان، وإن كان هناك من وضعوه محل الاعتبار مثل فرانسيس جالتون ("لارى غير التعقيم سبيلا نوقف به تكاثر غير الصالحين، الذين يمنحون الحرية لكنهم أدنى من أن يهتموا بالضوابط الأخلاقية") و هـ. ج. ويلز الذى تأمل فى تحسين السلالة البشرية عن طريق "تعقيم العاجزين".

أصيب الكثير من اليوجينيين الأمريكان بالقلق لأن قوانين تقييد الزواج وبرامج التعقيم ستكون عديمة النفع طالما استمر التهديد الخارجى للقوة البيولوجية للأمة، ففى الخمس عشرة سنة الأولى من هذا القرن كان المهاجرون يشكلون نحو نصف الزيادة فى عدد السكان. حذر ميشيل جاير عام ١٩١٦ من أن هذا الاتجاه ينذر بالخطر لأن "المهاجرين بعد وصولهم إلى هذا البلد يبزون السكان المحليين - وبمراحل - فى معدل التكاثر". (حذر الكاهن كينيت سى.

ماكارثر فى خطاب توزيع جوائز اليوجينيا من أننا "إذا استخدمنا المعدلات الحالية، فإن كل ألف خريج من هارفارد اليوم، سيتبقى من سلالتهم بعد مائتى عام خمسون فردا فقط، بينما يتبقى من سلالة ألف مهاجر رومانى مائة ألف". اعتمد كبار الثقات العلميين (الوراثيون، والسيكولوجيون، والأنثروبولوجيون) على "شواهد" الخبراء (وبالذات اختبارات الذكاء لهنرى جودارد عن المهاجرين، ونتائج تحليل بريجهام لاختبارات ذكاء الجيش) ليؤكدوا أن نسبة كبيرة من المهاجرين ينتمون، أو يكادون، إلى فئة "ضعاف العقول"، وأن استمرار دخولهم إلى الدولة - كما قال بركيس - سيؤدى إلى "تدهور السلالة". أيا كان مايعنيه تمثال الحرية، فإن اليوجينيين الأمريكان من أمثال تشارلس دافينبورت قد أكدوا ضرورة أن نضع مستقبل الأمة فى الأعتبار. كتب دافينبورت لأخيه وليام (وهو كاهن وهب حياته للعمل مع المهاجرين الايطاليين فى بروكلين نيويورك) كتب يقول "تخيل أىّ بلد ستصبح بلدنا... (بعد مائتى عام) إذا ظلت الأبواب مفتوحة على مصراعيها طيلة الوقت، تستقبل مهاجرين تحثهم شركات النقل ومقاولو العمالة الرخيصة؟. إننا لانريد أن نصنع من مدينة نيويورك ولونج أيلاند دولة اسمها المسيسبى، أو ماهو أسوأ من ذلك".

حاول تشارلس دافينبورت أن يبرهن على ضرورة أن يتم الانتخاب على أساس فردى، وأنه لايجب أن تُصنف شعوب بأنها غير مرغوبة. لكن بحلول أوائل عشرينات القرن العشرين حُجب مبدأ الانتخاب على أساس الخصائص البيولوجية والعقلية للفرد، ليسود مبدأ الانتخاب على أساس المجاميع السلالية والعرقية. لاشك أن هذا التحول إنما يعكس حجم المطالبات الصاخبة بتقييد الهجرة، كما أنه يعبر عن التحامل العرقى الواضح للكثير من اليوجينيين. كان من أهم النقاط الرئيسية فى البرنامج اليوجينى الأمريكى تقييد الهجرة من شرق وجنوب أوروبا. ثم اتسع البرنامج فى النهاية ليسمح بالهجرة فقط لذوى الدم القوقازى النقى، لمن يحصل على تقدير جـ على الأقل فى اختبار الذكاء بالجيش - وهذا هو المتوسط المفترض للشعب الأمريكى، ولمن يحصل على شهادة بأنه سيصبح أصلا بيولوجيا نافعا بالولايات المتحدة - وذلك بناء على تقييم يجرى على أقاربه. قالت الجمعية اليوجينية الأمريكية "لابد أن تعتبر الهجرة قبل كل شىء استثمارا طويل المدى فى خامات العائلات".